دلالة الاستلزام الحواري
في الباب السابع عشر من " كليلة ودمنة " لابن المقفّع

الدكتورة: ليلى جغام
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

تمهيد :

إن تناولنا لهذه الدراسة ضمن ندوة تتعلّق أساسا باللسانيات البنيوية التي وضع أساسها اللغوي السويسري فردينان دي سوسير ينطلق من عدّ التداولية مذهب السانيا يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات[1] .

والتداولية تهتمّ بالمعنى المراد داخل السياق بين متكلم بعينه ومتلقي بعينه، فهي تعرض للمعنى الاستعمالي، وهذا يتضمن دراسة المنطوق اللغوي، وبعد ذلك دراسة المتكلم وكلما يتصل به، وما هدفه أو قصده، ثم المتلقي وعلاقته بالمتكلم، ومعرفة العناصر الأخرى التي تؤثر في فهم المعنى [2]، ولأنّ هذا الفهم قد يعبّر عنه بمفاهيم شتى تتضمنها مصطلحات عدّة، ارتأينا اختيار قضية من أهمّ قضايا التداولية وأكثرها بحثا بين المشتغلين بها هي قضية الاستلزام الحواري .

الاستلزام الحواري أو الأفعال اللغوية غير المباشرة :

الاستلزام الحواري أو ما يسمى باللغة الأجنبية (**conversational implicature**) هو من أهمّ المفاهيم التي تقوم عليها التداوليات، وهو مفهوم لصيق

بلسانيات الخطاب، التي أخذ معها البحث اللساني منحى متميزا، إذ لم يعد الأمر معها يعنى بوضع نظريات عامة لعملية الخطاب، وإنّما انصبّ الاهتمام على العملية في حدّ ذاتها [3]، وظهر هذا المفهوم مع غرايس **(Paul Grice)**، الذي حاول أن يضع نحوا قائما على أسس تداولية للخطاب، تأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد المؤسّسة لعملية التخاطب، فهو يؤكّد أنّ التأويل الدلالي للعبارات في اللغات الطبيعية أمر متعذّر إذا نظر فيه فقط إلى الشكل الظاهري لهذه العبارات [4]، فالناس في حواراتهم حسب غرايس بحالات ثلاثة :

- قد يقولون ما يقصدون
- قد يقصدون أكثر مما يقولون
- قد يقصدون عكس ما يقولون [5] .

والحالة الثانية لهم هي التي تعبّر عن مضمون الاستلزام الحواري، الذي يرتبط بمعنى متضمن يرمي إليه المتكلّم في حواره مع المتلقي، قد يفهمه هذا الأخير وقد لا يفهمه إلا بقرائن معيّنة .

وهو ذاته ما يشير إليه أحمد المتوكّل حين يقول : « لاحظ غرايس أنّ جمل اللغات الطبيعية يمكن، في بعض المقامات، أن تدلّ على معنى غير المعنى الذي يوحي به محتواها القضوي (أو معناها الحرفي) ... »[6]، إذ أنّ لا يتأتى مما تتضمنه الجملة في شكلها الظاهر، بل هو معنى آخر يرتبط بكل ما يحيط بإنتاجها من سياقات، ويدرج غرايس ذلك في تصنيف عام للمعاني التي يمكن أن تدلّ عليها العبارات اللغوية [7]، وهو ما سنحاول تطبيق مخططه على نص الباب موضوع الدراسة .

مضمون الباب السابع عشر من "كليلة ودمنة" لابن المقفّع :

يتحدّد مضمون الباب السابع عشر من كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفّع موضوعا للدراسة في عنوان **(السائح والصائغ)**، الذي يستفتحه ابن المقفّع بقوله : «**قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل، فأضرب لي مثل الذي يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه . قال الفيلسوف : أيّها الملك ليس أضيع من جميل**

يصنع مع غير شاكر ولا أخسر من صانعه، كما أنّه لا بذر أنمى من بذر الجميل في قلوب الشاكرين، ولا تجارة أربح من تجارته ... »[8] .

ويضيف : « **ألا ترى أنّ الطبيب الرفيق العاقل لا يكتفي في مداواة المريض بالمعاينة فقط، لكنّه لا يقدم على علاجه إلا بعد تعرّف أحواله والجسّ لعروقه ومعرفة طبيعته وسبب علّته، فإذا عرف ذلك كلّه أقدم على معالجته، ولا ينبغي أن يختصّوا بذلك قريبا لقرابته، ولا أحد من خاصّتهم لشرفه إذا كان غير محتمل للصنيعة، فإنّه إنّما شرف بتشريفهم إيّاه، ولا أن يمنعوا معروفهم وجميلهم عن بعيد لبعده، أو خامل لخموله إذا كان عارفا بحقّ ما يصنع إليه مؤدّيا لشكر ما أنعم عليه ...»**[9] .

ثمّ يشير إلى الملك قائلا :« **إنّ طبائع الخلق، أيّها الملك مختلفة، وليس مما خلق الله ممّا يمشي على أربع، أو على رجلين، أو يطير بجناحين، أو يسبح في الماء، شيء هو أفضل من الإنسان . ومع ذلك فربما تحذّر العاقل من الناس فلم يأمن أحدا منهم وأخذ ابن عرس فأدخله في كمّه وأخرجه من الآخر، وأخذ الطائر الجارح فوضعه على يده فإذا صاد شيئا أبقى له نصيبا . ومن الناس البرّ والفاجر، ومن هؤلاء كلّ كفور كنود، حتى لقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمّة وأشدّ محاماة عن حرمة وأشكر للمعروف وأقوم به ... »**[10] .

ثم يذكر مثل ذلك فيقول : «**قال الفيلسوف : زعموا أنّ جماعة احتفروا ركية**[*] **فوقع فيها رجل صائغ وحيّة وقرد وببر**[*]**. ومرّ بهم رجل سائح فأشرف على الركية فبصر بالرجل والحيّة والقرد والببر . ففكّر في نفسه وقال : لست أعمل لآخرتي عملا أفضل من أن أخلّص هذا الرجل منبين هؤلاء الأعداء . فقد قيل لم يؤجر مأجور بأعظم من أجر من استحيا نفسا هالكة، ولا عوقب معاقب بأشدّ من عقاب من كفّ عن ذلك وهو قادر عليه ولو بمشّقة مما خلا ذهاب نفسه ...»**[11] .

وخلاصة مضمون هذا الباب وتكملته أن السائح لما مدّ حبله لإنقاض من في البئر كان القرد أولا، ثمّ الببر، بعده الحيّة، وأخبره كل منها عن مقرّ سكنه، واعترفوا بصنيعه معهم، وهم لابدّ رادّه له يوما، ونصحوه بعدم انقاض الرجل وقلن له : « **لا تخرج**

هذا الرجل من الركية فإنّه ليس شيء أقلّ من شكر الانسان ... »[12]، ولكن الرجل تجاهل النصيحة، ومرّ زمن فحضر الرجل المدينة التي يسكنوها فكان له من القرد اعترافه، فأكرم مقامه، وصنع معه الببر صنيع المعترف المجلّ لمن أحسن إليه، فجلب له حلي ابنة الملك وقدّمها هدية له، غير أنّ السائح تجاهل نصيحتهم مرّة أخرى وتوجّه إلى منزل الرجل، وكان صائغا، فلمّا رأى ما رأى معه من الحلي عرفها، فأختلس الذهاب إلى قصر الملك وأخبره عنه، فبعث الملك من يأتي به إليه .

فأدرك الرجل عند ذلك ما قصدوا حين نصحوه، وجاء خلاصه فلدغت الحية ابن الملك فشارف على الهلاك، واغتمّ الملك لحاله، وجرّب كلّ السبل لخلاصه فتعذّر عليه ذلك، فذهبت الحيّة إلى أخت لها من الجنّ، وذكرت لها صنيعه معها، فرقت له، وظهرت إلى الملك على صورة انسية، وقالت له : لا يبرأ ابنك حتى يرقيه السائح الذي وضعته في السجن، وكان خلاص السائح من كربه، وهلاك الصائغ على يد الملك لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح، فقال الفيلسوف للملك : « **ففي صنيع الصائغ بالسائح وكفره له بعد استنقاذه إيّاه وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إيّاه عبرة لمن افتكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا أو بعدوا، لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه »**[13] .

<u>المعاني المضمرة وراء مضمون الباب السابع عشر أو المعاني المستلزمة عنه :</u>

ويلاحظ اعتبارا لما ورد في بداية الكتاب من سياق عام لنسج خيوطه « خروج الملفوظ عن معناه الحقيقي إلى عدّة معاني استنتاجية ذهنية يجتهد المتلقي في التعرّف عليها، معاني ذات طبيعة غير مستقرّة توافق الحالة التي يصدر عنها، كما تؤدي بالمخاطب إلى التخفي وراء المعنى الجانبي Le sens litteral حتى لا يكون مسؤولا فيما يعتقده المستمع متسببا في ضرر لنفسه »[14]، وهو ذاته حال الفيلسوف بيدبا في حديثه مع دبشليم الملك، إذ كان يرمي من وراء حكاياته وأمثاله هذه التي صاغها على ألسنة الحيوانات تنبيهه إلى ما يجب اتّخاذه من حسن السيرة والعدل بين الرعية لما رأى منه من ظلم وسوء معاملة لها .

وحجّتنا في ذلك قول وارد في مقدّمة الكتاب مضمونه أنّ كان في ذلك الزمان : « **رجل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم يعرف بفضله ويرجع في الأمور إلى قوله يقال له بيدبا . فلمّا رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، فكّر في وجه الحيلة في صرفه عمّا هو عليه، وردّه إلى العدل والإنصاف . فجمع لذلك تلامذته وقال : أتعلمون ما أريد أشاوركم فيه ؟ اعلموا أني أطلت الفكرة في دبشليم، وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشرّ ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية ... وإن أحسّ منا بمخالفته وانكارنا سوء سيرته كان في ذلك بوارنا... ثم إنّ بيدبا اختار يوما للدخول على الملك ...** »[15] .

ونحن إذ نعطي بعدا استلزاميا لهذا الباب لا نسعى من ذلك إلى معرفة « ماذا يقول المتحدّث، ولكن لماذا يقول ما يقوله في سياق معيّن ؟»[16]، لأنّ ما يقوله ظاهر في حكاياته، إنّما سياق قوله ذلك وهو في حضرة الملك لابدّ أنّه لا يدلّ دلالة مباشرة عمّا تتضمنه أمثاله تلك، التي يجريها على ألسنة البهائم، وكثيرا ما يستفتحها ببداية ترتبط بحياة البشر وسلوكاتهم، في مثل ما أشرنا إليه في بداية الباب، أو قد يكون حكاية عن أحد الأشخاص ممن كانوا يملكون السلطة والنفوذ، على « اعتبار أنّ في الكثير من الأحيان يلاحظ أثناء عملية التخاطب، أنّ معنى العديد من الجمل إذا روعي ارتباطها بمقامات إنجازها، لا ينحصر في ما تدلّ عليه صيغها الصورية »[17]، وكذلك ما ورد في هذا الباب.

وإذا نظرنا إلى دلالة ما تضمنه الباب نجد الوقوف عليها متعذّر بالنظر إلى الجمل « إذا تمّ الاقتصار فيه فقط على المعطيات الظاهرة . الأمر الذي يتطلّب تأويلا دلاليا آخر، ومن ثمّة يتمّ الانتقال من المعنى الصريح إلى معنى غير مصرّح به (معنى مستلزما حواريا) ... »[18]، ولابدّ أنّ ذلك لا يقع اعتباطا، بل يترتب على مراحل ادراكية عند المتلقي، فمعرفة المتلقي لسياق انتاج الكتاب كخطاب كبير أولّ هذه المراحل وأهمّها، لذلك نجد أنّ ما أورده صاحب الكتاب في تقديمه خير معين على اعطاء أول خطوة في البعد الاستلزامي .

فضلا على أننا نلمح بعض ما سبق حكاية المثل، وما تلاها من قول بيدبا الفيلسوف في خطاب الملك، مما له أثر في بيان ما يريد إيصاله عن غير وجه المباشرة، لأنّ « أهمّ مميزات الاستلزام من حيث كونه آلية من آليات إنتاج الخطاب أنّه يقدّم تفسيرا صريحا لقدرة المتكلّم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة »[19]، وهذا ما سعى مرسل الخطاب إلى تجسيده من خلال ما استفتح به الباب من قوله للملك : **(أيها الملك ليس أضيع من جميل يصنع مع غير شاكر ...)**، إذ يشعره بوضعه داخل إطار الموضوع الذي يتحضّر لطرحه، ثم يتبع ذلك بالقصة المثل المتضمنة في موقف السائح مع القرد والحية والببر والصائغ، وما كان من هذا الأخير من نكران للجميل، وإجحاف لحق السائح في فضله، ويختم الباب بالعبرة المتوخاة من كلامه مشيرا إشارة خفيفة لما يريد نصحه به دون أن يشعره بظهور ذلك منه **(ففي صنيع الصائغ بالسائح ... عبرة لمن افتكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم قربوا أو بعدوا، لما في ذلك من صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه)** .

<u>خلاصة عامة :</u>

وختاما لما أردنا قوله نشير إلى أنّ الجمل في استعمالها لا تتحدّد بظاهر دلالتها دائما، إذ يمكن أن يتخذ الظاهر ذريعة لتأويل تشترك فيه عدد من المعطيات الداخلة في الخطاب، وكذا المؤطّرة لإنتاجه، ذلك أنّه ينبغي التنبيه إلى « أنّ للجملة وظيفتين دلاليتين : وظيفة أصلية قارّة في القواعد المضبوطة، ووظيفة متغيّرة تبعا لتغيّر ظروف الاستعمال وهي وظيفة لا يمكن أن تقنّن إلا حسب الظرف الاستعمالي للمتكلّم والمستمع (والمقام) .....»[20]، ولا ندعي في قولنا ذاك ولا تحليلنا الذي قدّمنا كمالا، إنّما هو جهد قمنا به، واجتهاد منا نرجو أن نلقى جزاء فعله عنده سبحانه نريد أن نفيد به، ونفتح بابا للبحث في المدونات القديمة وفق نظرة منهجية حديثة .

هوامش الدراسة :

(1) http://ar.wikipedia.org/wiki/-

(2) – نفسه

(3) – العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول الساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 1432ه – 2011م، ص 17 .

(4) – نفسه، ص 17، 18 .

(5) – http://ar.wikipedia.org/wiki/

(6) – أحمد المتوكّل، اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2010، ص 26 .

(7) – نفسه، ص 27 .

(8) – عبد الله بن المقفّع، كتاب كليلة ودمنة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، 1426ه–2005م، ص 195 .

(9) – نفسه، ص 195 .

(10) – نفسه، ص 196 .

(*) – الركية : البئر .

(*) – الببر : نوع من السباع الهندية– أبيض البطن والجانبين ومخطط بخطوط سود . يشبه الفهد والنمر .

(11) عبد الله بن المقفّع، كتاب كليلة ودمنة، ص 196 .

(12) – نفسه، 196 .

(13) – نفسه، ص 198 .

(14) – ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفّظ وتداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دط، 2005، ص 123، 124 .

(15) – عبد الله بن المقفّع، كتاب كليلة ودمنة، ص 13 –27 .

(16) – ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفّظ وتداولية الخطاب، ص 124 .

(17) – العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداولي اللساني – من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ص 18 .

(18) نفسه، ص 18 .

(19) – نفسه، ص 19 .

(20) – نفسه، ص 18 (هامش) .